لدعم العرب؟ لقد تصرف الكثيرون، خلال الأسابيع الماضية، انطلاقاً من أنهم يريدون موقفاً فلسطينياً يدعم مواقفهم، وألغيت، في خضم النقاش الحاد الـذي دار، الفكرة البديهية القائلة ان كثيراً من الجهد العربي يجب أن ينصب لدعم القضية الفلسطينية، حتى لو لم يكن الفلسطينيون قادرين أو راغبين بإعلان مواقف تدعم وجهات النظر العربية، في التوقيت الذي يراه الآخرون مناسباً لمصالحهم.

نقول ذلك ونحن نعرف سلفاً، واستناداً إلى الوقائع، أن منظمة التحرير لم تتوان في لحظة من اللحظات، عن تحديد الموقف الفلسطيني الرسمي في أي قضية من القضايا المصيرية، ولكنها كانت تفعل ذلك دائمًا، انطلاقاً من فهمها هي للوقائع، وفي توقيت تقرره بنفسها وتراه مناسباً لظروف حركتها السياسية.

إن إعلان الموقف من أي مبادرة، عربية كانت أم غير عربية، هو مسؤولية فلسطينية من الدرجة الأولى في الأهمية. ولكن المسألة ليست في ضرورة إعلان هذا الموقف، بل في توقيت إعلانه، وفي كيفية إعلانه وفي صياغة السلوك الفلسطيني إزاء أي موقف، وهل تحكم ذلك قواعد تنبع من الشروط المحيطة بالوضع الفلسطيني أم من الرغبات الرسمية العربية؟ والاجابة على هذا السؤال هي التي تقرر إلى حد بعيد، ما إذا كان أي جهد عربي يبذل سيوضع في خدمة القضية الفلسطينية، أم أن المطلوب هو أن تكون القضية الفلسطينية في خدمة ذلك الجهد.

ولدينا، في هذا السياق، مثل تاريخي بارز؛ ففي خضم المعركة حول قرار مجلس الأمن، رقم ٢٤٢، في العام ١٩٦٧، تصرف الرئيس جمال عبد الناصر انطلاقاً من قاعدة تقول: ان من حق الدول العربية أن تقبل القرار ومن حق الفلسطينيين أن يرفضوه. ومهما كان الرأي حول صحة هذه الصيغة أو خطئها، فإن عبد الناصر كان يدرك أن الديبلوماسية الفلسطينية، تملك هامشاً من الحركة، يجب أن يكون بالضرورة، أوسع من هامش الحركة السياسية للأنظمة العربية، وأن تكبيل الثورة الفلسطينية بهامش التكتيكات التي تفرضها أوضاع أي نظام بسبب ظروف الحرب، أو بسبب علاقاته الدولية، أمر قد يكون مضراً بالنضال الفلسطيني، بل وإن رفض الفلسطينيين للقرار قد يكون مفيداً للأنظمة العربية نفسها، من أجل ضبط عملية المساومة حتى لا تنزلق إلى مهاوٍ غير محسوبة.

القضية الثانية التي أثارتها المناقشات حول المبادرة السعودية، هي أهمية الربط بين المبادىء وبين التحريك الميداني للوضع. فالديبلوماسية لم تكن أبداً ولن تكون حواراً في الغرف، بل هي تبادل في المصالح، تفرض نتائجه موازين القوى على أرض الواقع. وأي مبادرة عربية، تحتاج لكي تنجح إلى إحداث جملة من المتغيرات تكسر واقع الجمود القائم. إن وضع الخطط لتطبيق شعار بناء «التوازن الاستراتيجي» مع اسرائيل على ضوء خروج مصر من ساحة الصراع، هو مدخل لا بد منه لجعل أي مبادرة عربية قابلة للتنفيذ. إن إنشاء قيادة عربية عسكرية موحدة، هو خطوة على الطريق نفسه. إن